فجرُ الهُدى والإيمان

من قصص الأنبياء



فجرُ الهُدى والإيمان

من قصص الأنبياء

للصغار واليافعين

١- آدم عليه السلام
٢- نوح عليه السلام
٣- هود عليه السلام
٤- صالح عليه السلام
٥- إبراهيم عليه السلام
٦- إسماعيل عليه السلام
٧- يُوسُف عليه السلام
٨- شُعيب عليه السلام
٩- أيّوب عليه السلام
١٠- يونُس عليه السلام
١١- موسى عليه السلام
١٢- داود عليه السلام
١٣- سُليمان عليه السلام
١٤- زكريا ويحيى عليهما السلام
١٥- عيسى عليه السلام
١٦- محمد صلى الله عليه وسلم

من قصص الأنبياء ، قصصٌ أنيرت وزيدت إشراقاً بذكر أخبار رُسُل الرحمة والإنسانية ، رُسُل المحبة والسلام ، حقاً إنهم كانوا فَجرَ الهدى والإيمان ، صلوات الله عليهم وسلامه ، الذين أناروا ظلامَ عقول البشر، واقتلعوا منها الأوهام والأباطيل ودعوا إلى عبادة إلهٍ واحدٍ لاشريك له ، بدءاً من آدمَ عليه السلام وإنتهاءً بخاتم الأنبياء والمرسلين ، محمد صلى الله عليه وسلم الذي أخبره الله تعالى في سورة هود عن نبأ من تقدمَّه من رُسُلٍ وأنبياء .

قال الله تعالى: (**وَكُلاً نَقصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَاتُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هذِهِ الحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلمُؤْمِنِيْن**)

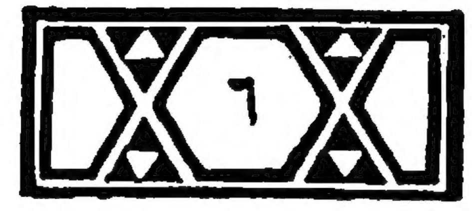
الناشر

دار القلم العربي
للأطفال

فجر الهدى والإيمان

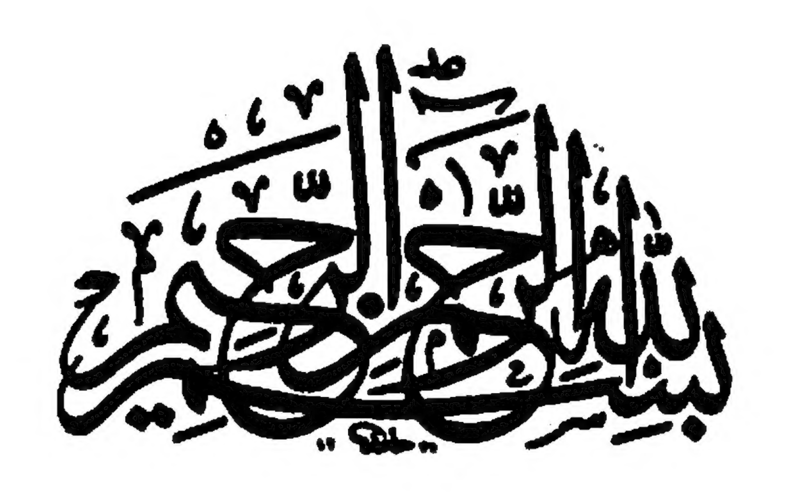
من قصص
الأنبياء
عليهم السلام

إسماعيل
عليه السلام
الذبيح



إعداد وترتيب : زهير مصطفى

مراجعة : يوسف عبد الكريم عساني



منشورات

دار القلم العربي

الطبعة الثانية

مضبوطة ومشكولة

1421هـ - 2001 م

عنوان الدار:

سورية - حلب - خلف الفندق السياحي - شارع هدى الشعراوي

ص.ب:78 هاتف: 2213129 فاكس: 2212361 21 963+

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ولادةُ إسماعيلَ

تَزَوَّجَ إبْرَاهِيْمُ الْخَلِيْلُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ، والِدُ إِسْمَاعِيْلَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ، مِنَ السَّيِّدَة سَارَةَ، الَّتِي كَانَتْ عَاقِراً لاَ تَلِدُ. وَكَمْ كَانَ يَتَمَنَّى إبْرَاهِيْمُ الْخَلِيْلُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ، أَنْ يَرْزُقَهُ اللهُ الوَلَدَ وَالذُّرِّيَّةَ الصَّالِحَةَ. فَاسْتَجَابَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِنِدَائِهِ وَطَلَبِهِ، وَبَشَّرَهُ بِغُلاَمٍ يَكُوْنُ سَيِّداً مُطَاعاً كَثِيْرِ النَّسْلِ: يَقُولُ اللهُ تَعَالَى:

﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾[1].

وَكَانَ إبْرَاهِيْمُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ، قَدْ هَجَرَ قَوْمَهُ فِي بَابِلَ، وَارْتَحَلَ مَعَ زَوْجَتِهِ سَارَةَ وَابْنِ أَخِيْهِ لُوْطٍ عَلَيْهِ السَّلاَمُ إِلَى مِصْرَ. وَهُنَاكَ أَهْدَى مَلِكُ مِصْرَ النَّبِيَّ إبْرَاهِيْمَ الْخَلِيْلَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ، جَارِيَةً تُدْعَى "هاجرَ" لِتَقُوْمَ عَلَى خِدْمَةِ وَرِعَايَةِ السَّيِّدَةِ سَارَةَ. وَرَغِبَتْ سَارَةُ أَنْ يَتَزَوَّجَ إبْرَاهِيْمُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ مِنْ هَاجَر عَلَّهَا تُنْجِبُ لَهُ الْوَلَدَ. وَهَذَا مَا حَصَلَ إِذْ حَمَلَتْ هَاجَرُ، بَعْدَ حِيْنٍ مِنَ الزَّمَنِ، وَأَنْجبَتْ إسْمَاعِيْلَ عَلَيْهِ

---

(١) سورة: الصافات (١٠١).

السَّلَامُ. وَلَكِنَّ غَيْرَةَ النِّسَاء لَابُدَّ وَأَنْ تَنْكَشِفَ وَتَظْهَرَ. فَكَيْفَ يُمْكِنُ لِهَذِهِ الْجَارِيَةِ أَنْ تَكُوْنَ أَسِيْرَةً مُحَبَّبَةً مُقَرَّبَةً إِلَى إِبْرَاهِيْم دُوْنَهَا، وَقَدْ وَلَدَتْ لَهُ الْولَدَ وَالذُّرِّيَّةَ الصَّالِحَة؟ فَمَا كَانَ مِنْهَا إِلاَّ أَنْ طَلَبَتْ مِنَ النَّبِيِّ إِبْرَاهِيْمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَلاَّ تَرَاهَا وَأَنْ تَغِيْبَ عَنْهَا.

هاجَرُ واسماعيلُ منفردين

سَارَ إِبْرَاهِيْمُ الْخَلِيْلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، بِزَوْجَتِهِ هَاجَرَ، وَابْنِهِ إِسْمَاعِيْلَ، إِلَى أَنْ وَصَلَ إِلَى مَكَانٍ جَافٍّ مُجْدِبٍ غَيْرِ ذِيْ زَرْعٍ، حَيْثُ مَكَّةُ الْمُكَرَّمَةُ الْيومَ، فَتَرَكَهُمَا هُنَاكَ، وَحِيْدَيْنِ يُعَانِيَانِ الْجُوعَ وَالْعَطَشَ. وَلَكِنَّ هَاجَرَ لَمْ تَسْتَسْلِمْ بَلْ حَاوَلَتْ أَنْ تَثْنِيَ[1] زَوْجَهَا عَنْ رَأْيِهِ، وَتَعَلَّقَتْ بِثِيَابِهِ مُتَوَسِّلَةً مُتَضَرِّعَةً وَقَالَتْ:

يَا إِبْرَاهِيْمُ كَيْفَ تَذْهَبُ وَتَتْرُكُنَا وَحِيْدَيْنِ، وَلَيْسَ مَعَنَا مَا يَكْفِينَا مِنْ طَعَامٍ وَشَرَابٍ؟ وَعِنْدَمَا أَلَحَّتْ عَلَيْهِ، قَالَ إِبْرَاهِيْمُ الْخَلِيْلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَاهَاجَرُ إِنَّ اللهَ أَمَرَنِيْ بِهَذَا. عِنْدَهَا رَجَعَتْ هَاجَرُ، وَاطْمَأَنَّتْ وَسَكَنتْ نَفْسُهَا وَقَالَتْ:

إِذاً فَإِنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ لَنْ يُضَيِّعَنَا، وَانْطَلَقَ إِبْرَاهِيْمُ الْخَلِيْلُ عَلَيْهِ

---

(١) تُثْنِيَ: تَرُدَّ.

السَّلامُ، حَزِيْناً، كَئِيباً كَادَ قَلْبُهُ يَتَمَزَّقُ حُزْناً وَكَمَداً عَلَى زَوْجِهِ وَوَلَدِهِ إِسْمَاعِيْلَ، حَتَّى إِذَا صَارَ إِلَى مَكَانٍ لاَ يَرَوْنَهُ فِيْهِ، تَوَجَّهَ إِلَى رَبِّهِ رَافِعاً يَدَيْهِ مُتَضَرِّعاً، أَنْ يَحْفَظَ لَهُ زَوْجَهُ وَوَلَدَه إِسْمَاعِيْلَ وَأَنْ يَحْمِيَهُمَا وَيَرْزُقَهُمَا مِنَ الثَّمراتِ وَالخَيْرَاتِ قَائِلاً:

﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾(١).

بئرُ زمزم

وَانْزَوَتْ هَاجَرُ وَحِيْدَةً، مَعَ ابْنِهَا إِسْمَاعِيْلَ الرَّضِيْعِ، حَزِيْنَةً كَاسِفَةَ البَالِ، كَئِيْبَةً، وَمَرَّتْ بِهَا الأَيَّامُ، تُرْضِعُ ابْنَهَا إِسْمَاعِيْل عَلَيْهِ السَّلامُ، وَتَشْرَبُ مِمَّا فِي سِقَائِهَا مِنْ مَاءٍ، إلى أَنْ نَفَدَ المَاءُ، فَأَخَذَتْ تُعَانِي مَعَ وَلِيْدِهَا إِسْمَاعِيْل عَلَيْهِ السَّلاَمُ مِنَ الظَّمَأ وَالعَطَشِ، تَحْتَ لَظَى الشَّمْسِ المُحْرِقَةِ، وَأَخَذَ إِسْمَاعِيْلُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ يَتَلَوَّى مِنَ العَطَشِ، وَهِيَ بِدورِهَا تَتَلَوَّى مِنَ العَطَشِ وَالْحُزنَ عَلَى ابْنِهَا وَهِيَ تَرَاهُ يَجِفُّ كَخِرْقَةٍ نَدِيَّةٍ يَطْلُبُ مَاءً فَلاَ تَجِدُهُ، وَأَنَّى لَهَا أَنْ تَجِدَ الْمَاءَ، فِي

---

(١) سورة: إبراهيم (٣٧).

صَحْرَاءَ مُجْدِبَةٍ[1]. لاَ نَبَاتَ فِيْهَا وَلاَ زَرْعَ. وَانْطَلَقَتْ يَدْفَعُهَا حُبُّهَا وَعَطفُهَا عَلَى ابْنِهَا الصَّغِيْرِ، تَبْحَثُ عَنِ المَاءِ عَلَّهَا تَجِدُهُ فَتُنْقِذَ ابْنَهَا مِنَ المَوتِ الْمُحتَّمِ. فَلَمْ تَجِدْ أَمَامَهَا، سِوَى جَبَلٍ يُدْعَى الصَّفَا، فَقَامَتْ وَصَعِدَتْ إِلَى ذِرْوَتِهِ[2]، وَنَظَرَتْ إِلى أَسْفَلِ الْوَادِيْ، فَلَمْ تَرَ أَحَداً فَنَزَلَتْ حَتَّى تَجَاوَزَتِ الْوَادِيَ تَسْعَى سَعْيَ إِنْسَانٍ مُشْرِفٍ عَلَى المَوْتِ، ثُمَّ صَعِدَتْ إِلَى جَبَلٍ يُدْعَى الْمَرْوَةَ وَنَظَرَتْ فَلَمْ تَرَ شَيْئاً. وَفَعَلَتْ ذَلِكَ سَبْعَ مَرَّاتٍ، تَسْعَى فِي كُلِّ مَرَّةٍ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، صَاعِدَةً هَابِطَةً، وَلَكِنْ دُوْنَ جَدْوَى وَمِنْ هُنَا جَاءَتْ تِلْكَ الشَّعِيْرَةُ مِنْ شَعَائِرِ حَجِّ الْمُسْلِمِينَ، إلى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ، حَيْثُ يَطُوْفُ الْمُسْلِمُونَ بَيْنَ الصَّفَا وَالمَرْوَةِ، سَبْعَ مَرَّاتٍ اقْتِدَاءً بِالسَّيِّدَةِ هَاجَرَ.

واسْتَسْلَمَتْ هَاجَرُ إِلَى قَضَاءِ اللهِ وَقَدَرِهِ، وَلَكِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ، لَمْ يَشَأْ أَنْ تَمُوْتَ هَاجَرُ، وَابْنُهَا إِسْمَاعِيْلُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ فَبَعَثَ إِلَيْهِما مَلَكاً فَإِذَا بِهِ عِنْدَ مَوْضِعِ زَمْزَمَ فَأَخَذَ يَحْفُرُ حَتَّى ظَهَرَ الْمَاءُ. فَسُرَّتْ هَاجَرُ سُرُوْراً عَظِيْماً، وَأَخَذَتْ تُحِيْطُهُ وَتُلَمْلِمُهُ وَتُزَمْزِمُهُ، وَتغرفُ مِنْهُ لِتَملأَ سِقَاءَها وَهُوَ يَفُورُ، فَشَرِبَتْ وَأَرْضَعَتْ وَلِيْدَهَا إِسْمَاعِيْلَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ، فَقَالَ لَهَا المَلَكُ:

لاَ تَخَافِي يَا هَاجَرُ، فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ، لَنْ يُضَيِّعَكِ وَابْنَكِ

---

(١) مجدبة: قاحلة لانبات فيها.

(٢) ذروته: قمته.

إسْمَاعِيْلَ، فَهُوَ وَوَالِدُهُ إبْرَاهِيْمُ عَلَيْهِمَا السَّلاَمُ، سَيَبْنِيَانِ هَا هُنَا، بَيْتاً للهِ يَكُوْنُ قِبْلَةً لِلمُسْلِمِيْنَ. يَقُوْلُ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ:

يَرْحَمُ اللهُ أُمَّ إسْمَاعِيْلَ لَوْ تَرَكَتْ زَمْزَم لَكَانَتْ زَمْزَمُ عَيْناً مَعِيْناً.

زواجُ إسماعيل

وَبَيْنَمَا كَانَتْ هَاجَرُ عَلَى تِلْكَ الْحَال سَعِيْدَةً، بِوُجُوْد الْمَاء وَتَدَفُّقِهِ مِنْ زَمْزَمَ، بِإرَادَةِ وَمَشِيْئَةِ الله عَزَّ وَجَلَّ، إذْ وَفَدَ عَلَيْهَا قَوْمٌ يُعْرَفُون بِاسْمِ "جُرْهُم" أَوْ الجَرَاهِمَةِ فَنَزَلُوا فِي أَسْفَل مَكَّةَ، وَقَدْ رَأَوْا بَعْض الطُّيُوْر تَحُوْمُ فَوْقَ زَمْزَمَ، تَعْلُوْ وَتَهْبطُ فَقَالُوا: إنَّ هَذِهِ الطُّيُور لَتَدُوْرُ عَلَى مَاءٍ، وَعَهْدُنَا بِهَذَا المكَانِ أَنْ لاَ مَاءَ فِيْهَ، فَأَرْسِلُوا مَنْ يَسْتَطْلِعُ لَنَا الأَمْرَ، وَعِنْدَمَا عَادَ رَسُوْلُهُمْ وَأَخْبَرَهُمْ بِوُجُوْدِ الْمَاءِ قَالُوا لِلسَّيِّدَةِ هَاجَرَ: أَتَسْمَحِيْنَ لَنَا أَنْ نَنْزِلَ عِنْدَكِ؟.

وَافَقَتْ هَاجَرُ عَلَى نُزُوْلِهِمْ، كَيْ تَأْنَسَ بِهِمْ. وَمَرَّتِ السِّنُوْنَ، وَشَبَّ إسْمَاعِيْلُ وَتَرَعْرَعَ وَسْطَ الْجَرَاهِمَةِ، وَتَعَلَّمَ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ مِنْهُمْ، فَكَانَ كَمَا يُقَالُ أَوَّلَ مَنْ نَطَقَ بِالْعَرَبِيَّةِ الفُصْحَى، فَنَالَ إسْمَاعِيْلُ إعْجَابَهُمْ وَعِنْدَمَا أَدْرَكَ[١] زَوَّجُوْهُ امْرَأَةً مِنْهُمْ، وَلَكِنَّ فَرْحَةَ

---

(١) أدركَ: بلغ مبلغ الرجال.

إِسْمَاعِيْلَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ، لَمْ تَدُمْ طَوِيْلاً، إِذْ مَاتَتْ أُمُّهُ هَاجَرُ، فَحَزِنَ عَلَيْهَا حُزْناً شَدِيْداً، وَهِيَ الَّتِي أَرْضَعَتْهُ مِنْ لَبَنِهَا وَحَلِيبِهَا، وَبَذَلَتْ فِي سَبِيْلِ إِنْقَاذِهِ كُلَّ غَالٍ وَنَفِيسٍ، وَلاَقَتْ مِنَ الْعَذَابِ مَا لاَقَتْ.

الزَّوْجَةُ العَاقَّةُ

اشْتَاقَ إِبْرَاهِيمُ الْخَلِيْلُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ، لِوَلَدِهِ وَتَرِكَتِهِ، فَذَهَبَ يَبْحَثُ عَنْهُ، حَتَّى اهْتَدَى إِلَيْهِ، فَسَأَلَ عَنْهُ، فَلَمْ يَجِدْهُ فِي بَيْتِهِ ،فَقَالَتْ لَهُ امْرَأَتُهُ:

- خَرَجَ إِسْمَاعِيْلُ يَبْتَغِي لَنَا رِزْقاً. وَأَرَادَ إِبْرَاهِيْمُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ، بِدَافِعِ الأُبُوَّةِ، أَنْ يَطْمَئِنَّ عَلَى ابْنِهِ إِسْمَاعِيْلَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ، أَهُوَ سَعِيْدٌ مَعَ زَوْجِهِ أَمْ لاَ؟ أَتَكُوْنُ هَذِهِ الْمَرْأَةُ مُطِيْعَةً تَقِيَّةً حَمِيْدَةً أَمْ لاَ؟ فَسَأَلَهَا عَنْ حَالِهِمْ وَعَيْشِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ، فَقَالَتْ:

- نَحْنُ فِي ضِيْقٍ وَشِدَّةٍ وَشَظَفِ عَيْشٍ[1]، لاَنَأْكُلُ كَمَا يَأْكُلُ النَّاسُ، وَلاَ نَلْبَسُ كَمَا يَلْبَسُ النَّاسُ، وَأَخَذَتْ تَشْكُو إِلَيْهِ ضَعْفَ حِيْلَةِ إِسْمَاعِيْلَ وَفَقْرَهُ الشَّدِيْدَ. عِنْدَهَا حَزِنَ الأَبُ الْحَنُونُ عَلَى ابْنِهِ، لأَنَّ هَذِهِ الْمَرأَةَ، لاَ تَصْلُحُ لَهُ، وَعَرَفَ أَنَّهُ يُعَانِيْ مَعَهَا، لأَنَّهَا كَثِيْرَةُ الشَّكْوَى، قَلِيْلَةُ الْحَمْدِ للهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَقَالَ لَهَا: إِذَا جَاءَ

---

(١) شظف عيش: فقر شديد.

إِسْمَاعِيلُ فَأَقْرِئِيهِ السَّلاَمَ، وَقُولِي لَهُ: أَنْ يُغَيِّر عَتبَةَ بَيْتِهِ. وَلَمَّا عَادَ إِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ، رَأَى فِي وَجْهِ زَوْجَتِهِ عُبُوْساً، وَأَحَسَّ أَنَّ شَيْئاً قَدْ حَصَلَ فَسَأَلَهَا:

ـ هَلْ جَاءَكِ أَحَدٌ؟

فَقَالَتْ: نَعَمْ جَاءَ شَيْخٌ طَاعِنٌ فِي السِّنِّ[1]، فَسَأَلَنِي عَنْكَ، وَسَأَلَنِي عَنْ حَالِنَا، فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّنَا فِي ضِيْقٍ وَشِدَّةٍ. وَأَوْصَانِيْ أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ السَّلاَمَ، وَيَقُوْلُ لَكَ أَنْ تُغَيِّرَ عَتبَةَ بَابِكَ. عِنْدَئِذٍ عَرَفَ إِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ، أَنَّ وَالِدَهُ إِبْرَاهِيمَ، جَاءَ يَسْأَلُ عَنْهُ، وَأَنَّهُ أَمَرَهُ أَنْ يُطَلِّقَ زَوْجَتَهُ، وَهَذَا مَا فَعَلَهُ إِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ، فَأَمَرَ زَوْجَتَهُ أَنْ تَلْحَقَ بِأَهْلِهَا.

الزوجةُ التقية

ثُمَّ إِنَّ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ، بَعْدَ أَنْ طَلَّقَ زَوْجَتَهُ، خَطَبَ مِنَ الْجَرَاهِمَةِ فَتَاةً أُخْرَى وَتَزَوَّجَها، وَغَابَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ، مُدَّةً طَوِيْلَةً، لَمْ يَزُرْ فِيْهَا ابْنَهُ، ثُمَّ عَادَ بَعْدَ أَنْ دَبَّ الشَّوْقُ فِي قَلْبِهِ، لِيَتَفَقَّدَ أَحْوَالَ ابْنِهِ. فَسَأَلَ امْرَأَتَهُ الْجَدِيْدَةَ عَنْهُ، فَقَالَتْ: خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا رِزْقاً، ثُمَّ سَأَلَهَا عَنْ حَالِهِمْ، وَأَوْضَاعِهِمْ وَعَنْ عَيْشِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ

---

(١) طاعن في السن: كبير.

فَقَالتْ: نَحْنُ بَخَيْرٍ وَسَعَةٍ، وَحَمِدَتِ الله، وَأَثْنتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ لَهَا: إذَا جَاءَ زَوْجُكِ فَأَقْرِئيْهِ مِنِّي السَّلاَمَ، وَاطْلُبِيْ إلَيْهِ أَنْ يُحَافِظَ عَلَى عَتَبَة بَيْتِهِ. فَلَمَّا عَادَ إسْمَاعِيْلُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ، وَاسْتَفْسَر مِنْهَا فِيْمَا إذَا جَاءَهَا أَحَدٌ، أَجَابَتْهُ: بِأَنَّ رَجُلاً كَبِيْراً، جَاءَهَا وَأَمَرَنِيْ أَنْ أُسَلِّم عَلَيْكَ، وَأَنْ تُحافِظَ عَلَى عَتَبَةِ بَيْتِكَ. فَقَالَ لَهَا إسْمَاعِيْلُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ:

- ذَاكَ أَبِيْ، وَأَنْتِ العَتَبَةُ، أَمَرَنِيْ أَنْ أُبْقِيَكَ عِنْدِيْ، وَأَنْ أُحَافِظَ عَلَيْكِ.

بناء البيت العتيق

وَبَيْنَمَا كَانَ إسْمَاعِيْلُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ، يَبْرِي نَبْلاً[1] لَهُ، تَحْتَ دَوْحَةٍ[2] قَرِيْبَةٍ مِنْ زَمْزَمَ، جَاءَهُ إبْرَاهِيْمُ الْخَلِيْلُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ وَقَالَ لَهُ:

- يَا إسْمَاعِيْلُ، إنَّ الله يَأْمُرُنِيْ أَنْ أَبْنِيَ هَا هُنَا بَيْتاً لِلنَّاسِ، يَكُوْنُ قِبْلَةً لَهُمْ يَحُجُّوْنَ إلَيْهِ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيْقٍ:

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا[3] لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ

(١) يبري نبلاً: يسنُّ سهماً.

(٢) دوحة: واحة مكتظة بالشجر.

(٣) بوأنا: بينّا.

بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ[1] يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ[2] عَمِيقٍ ﴾[3].

وَاسْتَجَابَ إسْمَاعِيْلُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ لِطَلَبِ أَبِيْهِ. وَأَخَذَ إبْراهِيْمُ الْخَلِيْلُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ، يَبْنِي الْحِجَارَةَ، وَإسْمَاعِيْلُ يَأْتِي بِهَا، وَرَفَعَا قَوَاعِدَ البَيْتِ.

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ ﴾[4].

وَاسْتَمَرَّا فِي الْبِنَاءِ حَتَّى اكْتَمَل، وَهُمَا يَدُوْرَانِ حَوْلَ الْبَيْتِ قَائِلَيْنِ:

﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[5].

فَكَانَ هَذَا الْبَيْتُ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ، يَحُجُّ إلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ، إلى الآنَ وَإلَى مَا شَاءَ اللهُ يَقُولُ اللهُ تَعَالَى:

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ[6] مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾[7].

---

(١) ضامر: بعير مهزول.

(٢) فجٍ عميق: طريق بعيد.

(٣) سورة: الحج (٢٦، ٢٧).

(٤) سورة: البقرة (١٢٧).

(٥) سورة: البقرة (١٢٧).

(٦) ببكة: أي مكة وبكّة اسم من أسمائها.

(٧) سورة آل عمران (٩٦).

إسماعيل الذبيحُ

سَأَلَ إِبْرَاهِيْمُ الْخَلِيْلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ربَّهُ أَنْ يَهَبَهُ وَلَداً صَالِحاً، وَذَلِكَ عِنْدَمَا هَاجَرَ مِنْ بَلَادِ قَوْمِهِ، فَبَشَّرهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِغُلَامٍ حَلِيْم، وَهُوَ إِسْمَاعِيْلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، الَّذِيْ وُلِدَ مِنْ هَاجَرَ، بَيْنَمَا كَانَ إِبْرَاهِيْمُ الْخَلِيْلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فِي السَّادِسَةِ وَالثَّمَانِينَ مِنْ عُمُرِهِ، فَهُوَ أَيْ إِسْمَاعِيْلُ، أَوَّلُ وَلَدٍ، وُلِدَ لإِبْرَاهِيْمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ الْوَلَدُ الْبِكْرُ يَقُوْلُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴾[1].

وَعِنْدَمَا كَبُرَ إِسْمَاعِيْلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَشَبَّ، وصَارَ بِمَقْدُوْرِهِ، أَنْ يَسْعَى وَيَعْمَل كَمَا يَعْمَلُ وَيَسْعَى أَبُوْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، رأَى إِبْرَاهِيْمُ الْخَلِيْلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، في الْمَنَامِ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَأْمُرُهُ أَنْ يَذْبَحَ وَلَدَهُ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ "رُؤَى الأَنْبِيَاءِ وَحْيٌ". يَقُوْلُ اللهُ تَعَالَى:

﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾[2].

---

(١) سورة: الصافات (٩٩ ـ ١٠١).

(٢) سورة: الصافات (١٠٢).

إِنَّهُ لأَمْرٌ عَظِيْمٌ وَاخْتِبَارٌ صَعْبٌ، لِلنَّبِيِّ إِبراهِيْمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَإِسْمَاعِيْلُ هَذَا الْوَلَدُ الْعَزِيْزُ الْبِكْرُ، وَالَّذِيْ جَاءَهُ عَلَى كِبَرٍ، سَوْفَ يَفْقِدُهُ بَعْدَمَا أَمَرَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَتْرُكَهُ مَعَ أُمِّهِ السَّيِّدَةِ هَاجَرَ، فِي وَادٍ لَيْسَ بِهِ أَنِيْسٌ، هَا هُوَ الآنَ يَأْمُرُهُ مَرَّةً أُخْرَى أَنْ يَذْبَحَهُ.

وَلَكِنَّ إِبْرَاهِيْمَ الْخَلِيْلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، امْتَثَلَ لأَمْرِ رَبِّهِ وَاسْتَجَابَ لِطَلَبِهِ وَسَارَعَ إِلَى طَاعَتِهِ. ثُمَّ اتَّجَهَ إِلَى ابْنِهِ إِسْمَاعِيْلَ، وَعَرَضَ الأَمْرَ عَلَيْهِ، وَلَمْ يُرِدْ أَنْ يَذْبَحَهُ قَسْراً، فَمَاذَا كَانَ رَدُّ الْغُلَامِ إِسْمَاعِيْلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؟:

﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾(١).

إِنَّهُ رَدٌّ يَدُلُّ عَلَى مُنْتَهَى الطَّاعَةِ وَغَايَتِهَا لِلْوَالِدِ وَلِرَبِّ العِبَادِ، لَقَدْ أَجَابَ إِسْمَاعِيْلُ بِكَلَامٍ فِيْهِ اسْتِسْلَامٌ لِقَضَاءِ اللهِ وَقَدَرِهِ، وَفِيْهِ امْتِثَالٌ رَائِعٌ لأَمْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَيُّ أَمْرٍ هَذَا؟ إِنَّهُ لَيْسَ بِالأَمْرِ السَّهْلِ، وَحَانَتِ اللَّحْظَةُ الْحَاسِمَةُ بَعْدَ أَنْ عَزَمَ إِبْرَاهِيْمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى ذَبْحِ ابْنِهِ، انْقِيَاداً لأَمْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَأَضْجَعَهُ عَلَى الأَرْضِ، وَالْتَصَقَ جَبِيْنُ إِسْمَاعِيْلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالأَرْضِ وَهَمَّ إِبْرَاهِيْمُ أَنْ يَذْبَحَ ابْنَهُ:

﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ(٢) لِلۡجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ﴿١٠٧﴾

---

(١) سورة: الصافات (١٠٢).

(٢) تلّه للجبين: أي أضجعه وجبينه عليه السلام ملتصق بالأرض.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ۝١٠٨ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ۝١٠٩ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾[1].

وَلَكِنَّ السّكّيْنَ لَمْ تَقْطَعْ، بِإِرَادَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، عِنْدَهَا فَدَاهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، بِكَبْشٍ عَظِيمٍ مِنَ الْجَنَّة، أَبْيض الصُّوفِ ذي قُرُونٍ كَبِيْرَةٍ.

وَهَكَذَا أَصْبَحَتِ الأُضْحِيَةُ سُنَّةَ سَيِّدِنَا إبْرَاهِيْمَ عَلَيْهِ السَّلامُ، وسُنَّةً لِلْمُسْلِمِيْنَ كَافَّةً، يُؤَدُّوْنَهَا أَيَّامَ الْحجّ إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيْقِ.

إسماعيل الصادق عَلَيْهِ السَّلامُ

لَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ إِسْمَاعِيْلُ عَلَيْهِ السَّلامُ، حَلِيْماً صَبُوراً، صَادِقَ الْوَعْدِ، مُحَافِظاً عَلَى الصَّلاَة، آمِراً أَهْلَهُ بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ، مُطِيْعاً لِوَالِدِهِ وَلِرَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ۝٥٤ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾[2].

وقَدْ وَصَفَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مَقْرُوْناً بِبَعضِ الأَنْبِيَاء، بِالصَّبْرِ وَالمُجَالَدَةِ، وَبِالتُّقَى وَالصَّلاَحِ، يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ ۝٨٥ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي

(١) سورة: الصافات (١٠٣ ـ ١١٠).

(٢) سورة: مريم (٥٤، ٥٥).

رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[1].

وَذَكَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ إِسْمَاعِيْلَ، كُلَّ صِفَةٍ جَمِيْلَةٍ، وَجَعَلَهُ نَبِيَّهُ وَرَسُوْلَهُ، وَبَرَّأَهُ مِنْ كُلِّ التُّهَمِ الَّتِي لَفَّقَهَا الْمُنَافِقُونَ الْجَاهِلُوْنَ، وَأَمَرَ عِبَادَهُ أَنْ يُؤْمِنُوا بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ، يَقُولُ اللهُ تَعَالَى:

﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٍ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾[2].

وَكَانَ النَّبِيُّ إِسْمَاعِيْلُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ، أَوَّلَ مَنْ رَكِبَ الْخَيْلَ، وَكَانَتْ آنَذَاكَ وُحُوْشاً غَيْرَ مُسْتَأْنَسَةٍ، فَأَنِسَهَا وَرَكِبَها وَلِهَذَا أَوْصَى رَسُوْلُ اللهِ ﷺ بِالْخَيْلِ، وَحَثَّ[3] عَلَى رُكُوْبِهَا لأَنَّهَا مِيْرَاثُ أَبِيْنَا إِسْمَاعِيْلَ، يَقُولُ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

اتَّخِذُوا الْخَيْلَ وَاعْتَقِبُوْهَا فَإِنَّهَا مِيْرَاثُ أَبِيْكُمْ إِسْمَاعِيْلَ.

وَكَانَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ، أَوَّلَ مَنْ تَكَلَّمَ بِالْعَرَبِيَّةِ الْفَصِيْحَةِ الْبَلِيغَةِ، الَّتِيْ تَعَلَّمَهَا مِنَ الْعَرَبِ، الْعَارِبَةِ، الَّذِيْنَ نَزَلُوا بِمَكَّةَ مِنْ قَبَائِلِ جُرْهُمَ وَالْعَمَالِيْقِ، يَقُولُ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

---

(١) سورة الأنبياء (٨٥، ٨٦).

(٢) سورة: البقرة (١٣٦).

(٣) حثَّ: شجَّع.

أَوَّلُ مَنْ فتَقَ[1] لِسَانُهُ بِالْعَرَبِيَّةِ البَيِّنَةِ[2] إِسْمَاعِيْلُ، وَهُوَ ابْنُ أَرْبَعَ عَشْرَةَ سَنَةً.

وَقَدْ رُزِقَ إِسْمَاعِيْلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، مِنِ امْرَأَتِهِ الثَّانِيَةِ، اثْنَيْ عَشَرَ وَلَدَاً، وَكَانَ نَبِيّاً مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، لِتِلْكَ النَّاحِيَةِ الَّتِي سَكَنَتْ فِيْهَا قَبَائِلُ جُرْهُمَ وَالْعَمَالِيْقِ وَأَهْلُ الْيَمَنِ، وَانْتَقَلَ إِسْمَاعِيْلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى رَحْمَتِهِ تَعَالَى، حِيْنَ بَلَغَ مِنَ الْعُمُرِ مِئَةً وَسَبْعاً وَثَلَاثِيْنَ سَنَةً.

* * * * *

---

(١) فَتق: نطق.

(٢) البينة: الواضحة والسليمة.